المحاضرة الرابعة عشر.

الإتجاه النقدي– كانط–

تأثر الفيلسوف الألماني **كانط**(1724–1804) بـ"وولف" و"ليبنتز"، إذ أقرّ بمبدأ العلّة الكافية ، أي وجود علة سامية في الكون، كما قال بها ليبنتز. كما تأثر بفلاسفة الإنجليز أمثال "هيوم" وأعجب بحرية التفكير التي نادوا بها، ومن أهم الأفكار التي أخذها عنهم فكرة ضرورة أن العقل يجب أن يقاوم ميله الطبيعي الذي يدفعه بهذا الميل إلى بناء أنساق شامخة ميتافيزيقية، ويدفعه إلى التفكير المجرد و البعيد عن الواقع. تأثر "كانط" بموقف التجريبية الإنجليزية، أولاً بموقف "لوك" العدائي من كل أنواع الميتافيزيقا اليونانية، و ثانياً، بـ"هيوم" في إنكاره الميتافيزيقا إجمالاً. والعلاقة التي تربط "كانط" بـ"هيوم"، ربّما تختصرها العبارة الشهيرة التي وردت على لسان "كانط" في كتابه "مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة" (***Prolegomena to Any Future Metaphysics***)1783 : « لقد أيقظني "هيوم" من سباتي الدوغماتي»[186]، و العبارة التي وردت في عمله الهام "نقد العقل الخالص"(***Critique of Pure Reason***)1781: « كنت ملهماً بفضل هذا الشك الهيومي»[187]، ومن المعروف أن "كانط"، قبل قراءته للأعمال الشكية لـ"هيوم"، كان يفترض بدون تمحيص، أنّ من الممكن أنّنا نملك معرفة قبلية فيما يتعلق بوقائع التجربة، لكن بعد قراءتها أدرك أنّ إمكانية مثل هذه المعرفة هي إشكالية جداً وبحاجة إلى تبرير[188]، وعلى الرغم من أنّه لا يخفي تذمّره من الدوغماتيين والشكّاك على حدّ سواء، فهو يقول: « ومن ثمّ فإنّنا

---

186 - " ***awaked me from my dogmatic slumber***", Kant. Prolegomena to Any Future Metaphysics. In Calkins.M.W,The persistent problems of Philosophy,.*op.cit*. p:211.

187 - " ***was inspired by this Humian doubt***". Kant. Critique of Pure Reason., In Calkins.M.W,The persistent problems of Philosophy,.*op.cit*. p:211.

188 - Bruce Anne , Knowledge of the external world,.Routledge London and New –York.,1991.,. P :61.

قد شعرنا بالملل من الدوغماتية التي لا نتعلم منها شيئاً، كما قد مللنا مذهب الشك الذي لا يعدنا بأي شيء ولا حتّى بالطمأنينة التي يسمح بها الجهل المباح »[189] كتب سنة 1766 رسالة: "أحلام راء للأرواح موضحة بأحلام الميتافيزيقا" أوضح فيها أنّ من السهل أن نقدم تفسيرات روحية شامخة، لكنّها تكون مع ذلك فارغة وعديمة القيمة([190]) ، وتأثر بتحليل هيوم لمبدأ العلية، إذ رفض هيوم ما يعتقد أن هناك ضرورة بين العلة والمعلول، وتوصل إلى أنّ الارتباط مجرد عادة نتيجة تكرار الحدوث وأسبقية العلّة على المعلول، لكنه لم يتفق مع النتائج الشكّية التي انتهى إليها هيوم. كما تأثر بروسو في الإيمان بالطبيعة. عندما تولى كرسي الفلسفة بالجامعة ظهر له كتاب" صور ومبادئ العالم المحسوس والعالم المعقول"، وفيها ظهرت خطوط مذهبه النقدي. لقد مرّ على المرحلة التجريبية بين سنتي 1762-1763 قبل الولوج إلى المرحلة النقدية([191])

كتب بعدها " نقد العقل الخالص" عرض فيه مذهبه النقدي في المعرفة، وبعدها عرض كتابه" نقد العقل العملي" ليعرض فيه مذهبه النقدي في الأخلاق و أخلاق الواجب. كما كتب "الدين في حدود العقل"ليعرض فيه نظرته إلى الدين. ثلاثة أسئلة وجهت عمله النقدي: ما الذي يمكنني أن اعرفه؟ و ما الذي ينبغي لي أن أعمله؟ و الذي أستطيع أن آمله؟ السؤال الأول يتعلق بالمعرفة، بينما السؤال الثاني يخص الأخلاق، في حين يبقى السؤال الثالث متعلقاً بالدين. ومن هنا يكون تقسيم محاضرتنا هذه. لكنّنا لن نختار سوى القسمين الأوليين.

المشكلة النقدية: كانت بداية البحث عند كانط هو الانطلاق من العقل، ليس من الناحية السيكولوجية، بل كان أساس بحثه نظرية المعرفة، وقد ميّز بين المعرفة العلمية والمعرفة

189 - كانط، مقدمة لكال ميتافيزيقا مقبلة متبوع بأسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة، نازلي إسماعيل حسين و محمّد فتحي الشنيطي، موفم للنشر.1991.ص:18.

190 - أنظر: هويدي يحي، دراسات في الفلسفة الغربية والحديثة، دار النهضة العربية، 1968، ص ص89-90.

191 - بدوي عبد الرحمن، عمانويل كانت"، وكالة المطبوعات، الكويت، "1، 1977. ص:141.

الأخلاقية، ومنه طرح سؤال: كيف يعرف العقل العالم؟ ما حدود هذه المعرفة؟ العقل خوّل لنفسه البحث في موضوعات تتجاوز حدود قدراته الطبيعية المؤهل بها، فخاض في موضوع الله وفي موضوع النفس وخلودها وخاض في حرية الإرادة الإنسانية، وهذه المواضيع هي ما يعرف بالميتافيزيقا. المشكلة النقدية عند كانط([192])، والتي دأب مؤرخو الفلسفة على تسميتها بنظرية المعرفة – مادام المقصود هو فحص الملكة العاقلة، واختبار قدرتها على المعرفة"– تأسست من تساؤل مشروع، قارن فيه بين الميتافيزيقا والعلم من حيث التطور. لماذا لم تتطور الميتافيزيقا منذ تأسيسها مع أرسطو وتطور العلم؟ وبصيغة أخرى طرحها كانط بنفسه: كيف يمكن أن تكون الأحكام الأولية التركيبية ممكنة؟([193]) أولي يقصد به كانط قبلي، أي قبل التجربة، ومستقل عنها، يتميّز بالضرورة مثل "كل جسم ممتد". بينما "تركيبي" فيعني تجريبي بعدي([194])، ومن هنا كان السؤال كيف يمكن أن تكون الأحكام (ذات صفة الأولية من ناحية وصفة التركيب من ناحية أخرى) ممكنة؟ توصل كانط بعد تأمل إلى أنّ العلوم، ويخص بذلك الرياضيات التي تقوم على مسلمات أولية التي يضعها العقل، وعلم الطبيعة الذي يحتكم ويقوم على التجربة، تقوم على المزج بين التجربة والعقل معاً [195] وهذا هو المقصود بلفظ "ممكنة" في سؤال المشكلة النقدية؛ أي الخلو من التناقض المنطقي، لأنّ الجمع بين الأولي والتركيبي عند الفلاسفة مستحيل، أمّا مع كانط فهذا الأمر ممكنا، ونجد ذلك في الرياضيات وعلم الطبيعة، وقوة تقدم هذين العلمين يعود إلى هذا التأليف، والإشكال: هل يمكن ذلك في الميتافيزيقا؟

---

[192] - زكريا إبراهيم، كانت والفلسفة النقدية، دار مصر، للطباعة ط2، ص:47.
[193] - كانط، عمانويل، نقد العقل المحض، ت/ موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، لبنان، ص:52.
[194] - المصدر نفسه، ص:48-49.
[195] - المصدر نفسه، ص:46.

فالميتافيزيقا، كما يقول رتشارد شاخت، وصفت بأنّها محاولة للاهتداء إلى معرفة الطبيعة الأساسية للأشياء– العالم، النفس، و الأشياء– اعتماداً على العقل الخالص. وكان الفلاسفة يسعون وراء مثل هذه المعرفة اعتماداً على العقل الخالص بعد أن تبين افتقار المعرفة التجريبية التي تعتمد على شهادة الحواس إلى اليقين، هذا ولم يتشكك العقلانيون في قدرة العقل الخالص، إذ عمل مستقلاً عن الحواس. كانط في بداية عمله لم يشكك في هذا الاتجاه([196])

بين التجربة والعقل: فرق كانط بين مصدرين للمعرفة؛ الحساسية الذي تناوله في القسم الأول المسمى "علم الحساسية المتعالية" ويتناول فيه الأفكار الأولية للحساسية وهما الزمان والمكان، وهي تعني قابليتنا التي تجعلنا نستقبل الأشياء في صورة معطيات تؤثر فينا. والذهن أو العقل، مع أن كانط يفرق بينهما([197])، فعندما يقيد العقل نفسه بالتجربة يسميه الذهن، وهذا في القسم الثاني الجزء الأول المعروف بـ"التحليل الترنسندنتالي"، حيث يهتم كانط فيه بتحليل التصورات" المقولات العقلية"من جهة، ومن جهة أخرى بتحليل المبادئ، وهي أيضاً مقولات يمتزج فيها عمل العقل بعمل المخيّلة. لكن في الجزء الثاني من نفس القسم المعروف بـ"الديالكتيك المتعالي" فالعقل يدل على الجزء من الذهن الذي يتعدّى حدود التجربة.

يقول كانط:" رغم أنّ معرفتنا بأسرها تبدأ بالتجربة، إلاّ أنّ هذا لا يعني أنها كلها مستمدّة من تجاربنا"([198]) لأن أول ما ينبه الملكة العارفة فينا تلك الموضوعات التي تؤثر على حواسنا، فتولد فينا بعض التمثّلات، لكن هذا لا يعني أن معارفنا تأتي كلها من التجربة كما يقول التجريبيون، بل هناك معرفة خالصة قبلية ضرورية، متمثلة على وجه الخصوص في القضايا الرياضية، هذه

196 - رتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص:261.
197 - هويدي يحي، دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ص:111
198 - كانط، عمانويل، نقد العقل المحض، ص:45.

المعارف الأولية هي موجودة في الذهن وهي شروط ضرورية للمعرفة، لكنّها لا تعطينا معرفة أيضا كما يدّعي الفلاسفة العقليون. تبدو الظواهر و المحسوسات متفرقة يحاول الإنسان أن يجد نوعاً من الوحدة بصورة سريعة في الأول بين هذه العناصر الحسية عن طريق المخيلة، وهذه المحسوسات لن يتلقاها الإنسان إلا في إطار الزمان والمكان، كصورتين أوليتين للحدس التجريبي، وليس المكان أو الزمان تصورين تجريبيين، ثم أن دور و وظيفة المقولات توحيد بين الظواهر أو تؤلف بينها عن طريق نوع من التركيب العقلي، أي أنّها تمثل روابط عقلية يظهر العالم الحسي من خلالها في صورة موحدة([199])، إذن، المعرفة عند كانط تتألف من عنصرين: ما ينقله الحس إلينا هو المادة، وما هو موجود في عقولنا من مبادئ أولية هو الصورة بلغة أرسطو، و وظيفة الفلسفة النقدية هو العمل على تبيان ما يرد إلينا من الخارج من جهة، وما نضفيه على المعطيات الحسية من صور أولية، فنجد صورتي الزمان والمكان. ثم أن ما ندركه من أشياء حسية لا بد وأن تتشكل ذهنياً بواسطة قوالب ذهنية وهي المقولات التي تصبّ فيها المعطيات الحسية. وهذا ما عُبّر عنه بالقول: "إن المفاهيم بدون حدوس حسية جوفاء، كما أن الحدوس الحسية بدون مفاهيم عمياء" .

بين الأشياء في ذاتها وعالم الظواهر: يميّز كانط بين عالم الظواهر ***Phenomenon*** أو الأشياء كما تبدو لنا و عالم الأشياء في ذاتها ***Noumenon***، ما يمكن للإنسان أن يدركه هو عالم الظواهر فقط، فهو موضوع التجربة الحسّية، وموضوع المعرفة مادامت المعرفة تبدأ كلها مع التجربة. فهذا العالم هو الذي يمدّ العقل بموضوعات الذي تبدأ معها المعرفة. عالم الأشياء في ذاتها يستعصى و يستحيل على الإنسان إدراكه، لأنّ الإنسان لا يمكنه أن ينفذ إلى باطن الأشياء.

[199] - هويدي يحي، دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ص:135.

هذا المنحى الكانطي يؤسس لما يعرف بظاهرية العالم الخارجي، فهو يفرق بين نوعين من الموجودات: الأشياء في ذاتها(***Nomina***)، والأشياء كما تبدو لنا بوصفها ظواهر(***Phenoumena***). تبعاً لهذا التقسيم، العالم له مظهران: هناك عالم الظواهر، وهي الأشياء التي ندركها بالحدس في المكان، ومجرد اعتراف الذهن بالظواهر، هو في حدّ ذاته اعتراف بوجود عالم الأشياء في ذاتها. ما يستطيع الذهن الحديث عنه وإدراكه هو عالم الظواهر، أمّا عالم الأشياء في ذاتها، ففرضته ضرورة وجود عالم الظواهر، و يخرج عن مجال طريقة الإنسان في الإدراك، إنّه عالم مجهول لا يمكن أن نصدر أيّ حكم بصدده، سواء بالإيجاب أو بالنفي. إذن، العالم يعرف بوصفه ظواهر لا بوصفه أشياء في ذاتها. لكن لماذا يقتصر "كانط" على فكرة الظاهرة؟ بسبب أنّنا لا نعرف مباشرة إلاّ الإدراكات، وهذا تأثير "باركلي" و"هيوم". وإذا حاولت أن أستدلّ من هذه الإدراكات على سببها، فلن أستطيع الوصول أبداً إلى أي يقين[200]. ربّما قد يكون الأصل "شيئاً في ذاته"، لا أعرف عنه شيئاً. وهنا يحق لنا التساؤل: ألم نحكم على "هيوم"، حين قال أنّ الانطباعات الحسية هي من مصدر غير معروف، بأنّه وقع في الشكية؟! وعندما يفترض "كانط" بالاستدلال، وجود كيان عقلي(نومان)، أو أجساماً، هي بالفعل مجهولة لدينا تماماً من حيث ما قد تكونه في ذاتها، ألا يدلّ هذا بوضوح على الموقف "اللاأدري" لـ"كانط" ، بحيث يعلّمنا ألاّ نصدر أي حكم على طبيعة الأشياء في ذاتها؟! الإجابة بكلّ تأكيد هي: بلى. لم يستطع "كانط" أن يستغنى عن النزعة الريبية في فلسفته المتعلقة بالعالم الخارجي، وربّما هذا ما دفع "**سيسيه**"

200 - زكرياء (فؤاد)، نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان، مرجع سابق، ص:106.

Saisset إلى أن يقوم بتطبيق مصطلح الريبية على مذهب "كانط" الانتقادي الذي يدعوه:« المذهب الأعمق، الأكثر جدّية وأصالة بين المذاهب الريبية الحديثة» [201]

الأوهام المتعالية: بطبيعة العقل أنّه ينزع إلى تجاوز معطيات التجربة إلى الأشياء في ذاتها فيرتكب أوهاماً متعالية. فينطلق الذهن إلى بناء معرفة نظرية مجردة خالية من كل مضمون، وهي معرفة عامة لا تتعلق بالزمان والمكان ولا تتقيد بأية تجربة، وفي هذه الحالة ستكون المعرفة هذه أشبه ما تكون بالقانون الفارغ المليء بالأحكام المطلقة السفسطائية، وكل هذا بحثه كانط في الجدل. ويقصد كانط بالديالكتيك البحث الجدلي في المعرفة المجردة الفارغة غير المقيّدة بالتجربة وموضوعاتها، والملكة التي توكل لها هذه المهمة هي الذهن أو بالأحرى ذلك القسم من الذهن المسمى العقل(202) ويقدّم لنا كانط مجموعة من الأفكار الزائفة المؤسسة على هذه الأوهام المتعالية وأهمها: مثل فكرة الله، و فكرة العلّية، وفكرة الحرية، وفكرة الجوهر، وفكرة خلود النفس.

<u>الإتجاه النقدي في الأخلاق:</u>انطلق من السؤال الأخلاقي ماذا يجب عليّ أن أفعل؟ أو ماذا ينبغي علي أن أعمله؟، هذا السؤال هو محور فلسفة كانط الأخلاقية، لكنه قبل الإجابة عن هذا السؤال ، كان عليه أن يقوم بفحص المذاهب الأخلاقية الكبرى التي سبقته.

<u>نقد المذاهب الأخلاقية السابقة</u>: جميع المذاهب الأخلاقية السابقة بما فيها المذاهب التي تأسست على العقل. يحكم عليه كانط بالتهافت، فهي حدّدت غاية للأخلاق وهو الخير المطلق. **فالمذاهب العقلية** جعلوا الخير المطلق غاية، لكن كانط، وكما مرّ بنا، يرى أن الخير المطلق مبحث ميتافيزيقي، يتجاوز حدود التجربة، والعقل عاجز عن معرفة ذلك كما أثبت في كتابه نقد

201 - نقلاً عن: لالاند (أندريه)، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني. مرجع سابق، ص:1245.
202 - هويدي يحي، دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ص ص:113-114.